البدلية العقابية

آخر معقل للأريوسية والنسطورية

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٧

www.coptology.org

تقديم

اتحفنا نيافة الأنبا روفائيل سكرتير المجمع المقدس بمحاضرة في مهرجان الكرازة المرقسية الرابع عشر ٢٠١٧ بعنوان "البدلية العقابية في فكر القديس أثناسيوس"، شَرَحَ فيها سر الفداء من خلال مَثَل أن ولداً دخل بعَجَلةٍ في محل فانكسر الزجاج، وأُصيب الولد، فأصبح لدينا مشكلتان: تعويض صاحب المحل، ومعالجة هذا الولد. وذكر فيها أن اللاهوت السكندري جمع بين الجانب القضائي (إن الله جاء لكي يسدد الديون) السائد في الغرب اللاتيني، واللاهوت الشرقي الذي يمثله الآباء الجريك (اليونانيون)، والذي ركَّز على الشفاء، وأن القديس أثناسيوس الرسولي قال بالاثنين: يوفي الدين ويشفي الطبيعة البشرية، وأن أثناسيوس قال إن هناك ديناً سيُدفع .... إلخ

وأول ما يثيره هذا الكلام هو الأساس الذي بناءً عليه عزل نيافته، اللاهوت السكندري عن اللاهوت الشرقي؛ لأنه إذا كان اللاهوت السكندري هو أحد منابع اللاهوت الشرقي، فكيف يمكن التمييز بينهما على أنهما مختلفان؟

ثانياً: الادعاء بأن اللاهوت الشرقي (السكندري) جمع بين الجانب القضائي والجانب الشفائي هو ادعاءٌ غير صحيح، ويفتقر إلى الدليل. لأنه إذا كان اللاهوت الشرقي لا يعرف هذا النظر، وأن أيّاً من الآباء الشرقيين لم يتبنى الجانب القضائي في شرحه للخلاص، فلا شك أن هذا الادعاء يحمل في طياته اتهاماً زائفاً للاهوت الشرقي بالنقص، وهو ما يعني أن اللاهوت الشرقي كان عليه أن ينتظر العصر الوسيط حتى يكتمل شرحه لسر الفداء، وأن التعليم السائد شرقاً كان ناقصاً، وأن اللاهوت الغربي هو من أكمل هذا النقص! وهذا كله محل نظر؛ لأن هذا الاتهام لا يطال فقط الآباء، وإنما الليتورجية أيضاً؛ لأنه إذا افتقدت الصلوات الليتورجية إلى تعبيرات مثل الدين والشراء

والتعويض ... إلخ وهي المفردات المستخدمة في شرح الجانب القضائي، فإن صحة التعليم المسيحي كله تصبح على المحك، وهو أمر في غاية الخطورة لا يمكن أن يبرره حسن النية أو نقص المعلومات، وعلى ذلك، فعلى نيافته مراجعة موقفه وإعادة دراسة الموضوع دراسة مجردة دون أفكارٍ مسبقة.

وفي الحقيقة نحن نستغرب هذا الإصرار على تعليم لا يستند على التسليم الرسولي، وإنما هو نتاج بيئة الثقافة الإقطاعية في العصر الوسيط الأوربي.

ومن ناحية أخرى، هذا الكلام محل نظر تاريخياً؛ لأن مصطلح "البدلية العقابية" هو مصطلح غربي أساساً مثله مثل مصطلح "الخطية الأصلية"، ولم يكن معروفاً لدى القديس أثناسيوس، أو لدى الآباء الشرقيين على الإطلاق، وبالتالي فإن الكلام على بدلية عقابية عند القديس أثناسيوس هو مجرد ادعاء لا يسنده لا التاريخ ولا التسليم الرسولي للاهوت الإسكندرية، ولا الوثائق، ويصبح هذا الكلام من قبيل دس ما لا يعرفه أثناسيوس عليه لمجرد أن هناك تشابهاً في بعض الكلمات يسمح لطرفٍ أن يُسقط فكره المسبَق على شرح أثناسيوس لتدبير الخلاص، فيتخيل ما لم يكن يعرفه أثناسيوس أصلاً، في الوقت الذي تتطلب فيه دراسة تجسد الكلمة تجريد الذهن من أية أفكار مسبقة حتى لا نصل إلى النتيجة التي وصل إليها نيافة الأنبا روفائيل فاعتقد خطأً أن أثناسيوس جمع بين النظريتين وأنه صالح اللاهوت الغربي على اللاهوت الشرقي في الوقت الذي لم يكن فيه الشرق أيام أثناسيوس يعرف ما نشأ في الغرب بعده بعدة قرون.

وأنه وإن كان القديس أثناسيوس قد ذكر كلمة "الدين"، وإن كان الكتاب المقدس قد تكلم عن إننا اشتُرينا بثمن، فإن هذا لا يسمح بالقول بأنه يمكن مصالحة الشرق على الغرب لمجرد استخدام ذات الكلمات، وإلا كان ذلك تلفيقٌ من التلفيق، وتقديم نموذج من الخفة في تناول الأمور لا تعرفه رصانة العلم، وهو أمرٌ في غاية الخطورة أيضاً.

والأمر لدينا أن ندع أثناسيوس وحده يتكلم دون أن نقحم عليه ما هو بريء منه ولا يعرفه.

الحقائق الإيمانية التي لا خلاف عليها:

هناك من الحقائق الإيمانية التي لا خلاف عليها، ما يحكم وجهة النظر إلى الموضوع، بحيث أن الرجوع لهذه الحقائق، يستوجب مراجعة ما يقال في هذا الخصوص. من هذه الحقائق نكتفي بحقيقتين:

أولاً: الابن له المجد من ذات جوهر الآب، ولم يفقد أُلوهيته عندما تجسد، بل – بدون جدال– يقبل الكل أن "فيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً" (كولوسي ٢: ٩)، وهو أعظم ما يُقال عن أُلوهية الرب يسوع، بل يعادل هذا النص كلمات الإنجيل: "الكلمة صار جسداً" (يوحنا ١: ١٤)؛ لأنها تؤكد ملء أُلوهية الابن الكلمة.

ثانياً: الابن له المجد هو خالقٌ مع الآب، وهو ما تؤكده افتتاحية إنجيل يوحنا والإصحاحات الأولى من كولوسي والعبرانيين. هو خالق الإنسان والكون وكل ما فيه، وهو ما نعترف به في قانون الإيمان، وفي صلوات القداسات الأرثوذكسية: "هذا الذي خلقتَ الكلَّ به ..." (القداس الباسيلي)، فإذا اكتفينا بالحقيقة الأولى والثانية التي لا خلاف ولا جدال حولهما؛ أصبح من الضروري مراجعة ما نقول عن التجسد والصلب:

المراجعة الأولى: إن مَن هو مساو للآب لا يمكن أن يكون ثمناً يُقدَّم للآب؛ لأن الاعتداء الموجَّه لله، حسب الادعاء السائد بأن الخطية كانت اعتداءٌ على كرامة ومجد الله ... الخ، هو اعتداءٌ موجَّهٌ ضد الآب والابن والروح القدس، وليس ضد الآب وحده. وهو ما فشل في إدراكه تماماً، أنسلم رئيس أساقفة كانتربري، وغيره من قيادات العصر الوسيط، إضافةً إلى واضع ميمر العبد المملوك في حواره عن العدل والرحمة. وهو فشلٌ في إدراك عمل الثالوث الواحد في تدبير الخلاص.

ولا شك أن مسئولية الوقوف أمام جهل المدافعين عن العصر الوسيط عندنا، تقع علينا نحن الذين درسنا تاريخ عقائد المسيحية، وها نحن نحاول الحوار مع الذين تحصنوا في مواقع العصر الوسيط لأسباب شخصية بحتة لا علاقة لها بالتاريخ أو الإيمان، وهم يدافعون بكل أساليب الكذب والمراوغة كأن الإيمان هو أشخاصهم.

١- فإذا كانت الخطية هي اعتداءً على الابن كما هي اعتداء على الآب والروح القدس، فلماذا يَقصِر تلاميذ العصر الوسيط -الاعتداء- على الآب فقط، ويطلبون من الابن تقديم الترضية؟ فإذا كان الجواب هو: لأن الابن تجسَّد، فهذا أسوأ ما يمكن أن يُقال؛ لأن التجسد لم يكن من أجل رد كرامة الله، ولا من أجل دفع دَينٍ كما يصرخ البعض في انفعالٍ شديد، بل كان تجسده، ولا زال هو استعلان محبة الله للبشر، وهو الذي جعل صلواتنا تصف الله والابن بالذات، بأنه "مُحب البشر"، وهكذا تم وضع محبة الله في قفص الدفاع عن الله، لا في حركة التدبير لخلاص الإنسان.

٢- وإذا كانت الخطية أو سقطة آدم هي دَين، فهي دينٌ للابن والروح، وليست ديناً لله الآب وحده؛ لأن كل أعمال الثالوث هي عمل الله الواحد المثلث الأقانيم.

المراجعة الثانية: "الدَّين" كلمةٌ وردت فعلاً في تجسد الكلمة للقديس أثناسيوس: "الدَّين المطالَب به الجميع، أو المستحَق على الجميع" (٢٠: ٢)، ولكن قنص وخطف النصوص لا يبني الإيمان. لأن "الدين" لا يمكن أن يكون هو دَين الإنسان لله؛ لأن الدين كما ورد في (الفصل ٩: ٢)، وفي عبارة لا تحتمل الجدل، وتعلو على كل احتمالات التشبُّه بصبي كسر زجاج محلٍ مثلاً، فأصبح عليه غرامةً؛ لأن الذي كُسِرَ لم يكن زجاج المحل، بل كيان الإنسان الذي استُعبِدَ للموت، وبحكمٍ صادرٍ من الثالوث وليس من الآب وحده. يقول القديس أثناسيوس: "ولأن كلمة الله هو فوق الجميع، فقد كان لائقاً أن يقدم هيكله الخاص وأداته الإنسانية فديةً عن / من أجل حياة الجميع، موفياً دَين الجميع بموته". ولم يقف أثناسيوس عند هذه العبارة، بل أكمل الشرح: "وهكذا باتخاذه جسداً مماثلاً لجسد جميع البشر وباتحاده بهم، فإن ابن الله عديم الفساد أَلبسَ

الجميع **عدم الفســاد بوعد القيامة من الأموات**، ولم يعد بعد الفســاد الفعلي بالموت له سلطان على البشر بسبب الكلمة الذي جاء وسكن بينهم بواسطة جسده" (٩: ٢). ولكي تكون كل الأمور واضحة، يجب أن نسأل أثناسيوس نفسه: ماذا يقصد بكلمة دين؟

١- يؤكد أثناسيوس أنه "طالما نتحدث عن مشورة الله الصالحة نحونا، فيجب علينا أن نشـــرح المعنى الواحد بطرقٍ عديدة، حتى لا يبدو كأننا تركنا أيَّ شـــيءٍ بدون تفســير" (٢٠: ٣)، ولذلك نجده حين ذكر "الدين" في فصـــل ٩، يقدِّم مثلاً عن ملكٍ عظيم دخل مدينةً وسكن فيها، فلا يجرؤ عدوٌّ أو عصابةٌ أن تدخل إليها .. لأنه قد جاء وسكن في جسد مماثل لأجسادنا، فقد بطُلت منذ ذلك الحين كل مؤامرة العدو ضد البشر" (٩: ٣ - ٤). وهنا نلفت النظر بشدة إلى نتيجة هذه السكنى: "**وأبطل فساد الموت الذي كان ســائداً عليهم من قبل**" (٩: ٤). وبالطبع فقد أبطل الربُّ الموتَ كحكمٍ نهائيٍّ؛ لأنه وضع حداً للموت بالقيامة.

٢- ما معنى عبارة: "موفياً دَين الجميع بموته" (٩: ٢)؟ يعود أثناســيوس لذات الموضوع في الفصل ٢٠ فيقول: "لكي يتم تم وفاء الدين المستحق على الجميع .. قدَّم ذبيحته عن الجميع، فأســلم هيكله للموت عن الجميع. أولاً: لكي يبررهم ويحررهم من المعصية الأولى (وليس الخطية الأصلية حسب تزوير الأنبا بيشوي) وثانياً: لكي يثبت أنه أقوى من الموت مظهراً **أن جســده الخاص به عديم الفســاد**" (٢٠: ٢). هكذا يقودنا أثناسيوس إلى موضوع الموت. وهذه هي عبارات أثناسيوس نفسه: "من غير الممكن أن يموت الكلمة لأنه غير مائت لأنه هو ابن الآب غير المائت (مســاوي للآب) (٩: ١)؛ لذلك "اتخذ لنفسه جسداً قابلاً للموت حتى أنه عندما اتحد هذا الجسد بالكلمة الذي هو فوق الجميع، يصبح جديراً ليس فقط أن يموت عن الجميع، بل ويبقى في عدم فساد بســبب اتحاد الكلمة به" (٩: ١). وهنا بالذات، نجد أن اتحاد الألوهة بالناســوت هو الذي **حفظ الناســوت بلا فســاد** لكي يمنح الرب عدم الفساد لنا (٩: ١). ولذلك لا يوجد هنا مجال لتقديم تعليم العصر الوسيط عن (الناسوت)المحدود، و(اللاهوت) غير

المحدود؛ لأن هذا التقسيم ليس فقط تقسيماً متعسفاً، بل هو نسيان لحقيقة هامة هي أن المقصود باتحاد اللاهوت بالناسوت هو **تقدمة حياة تبيد الموت**، بسبب عجز الموت عن أن يبيد حياة الناسوت نفسه لأن سلطان الموت قد استُنفِدَ في جسد الرب فلا يعود للموت سلطان على أجساد البشر" (٨: ٤). ولذلك، فإن موت الرب لم يكن موته هو نفسه، أي موتاً عن خطية (٢٢: ٣)، ولكن لكي يُبطل عن البشر ناموس الموت والفناء، ولذلك "رَفَعَ حكم الموت" (٩: ١)، بل أباد الموت (١٣: ٩ – ٢٠: ٦). ولم يترك أثناسيوس المجال للخيال، فيؤكد "أباد الموت بنعمة القيامة" (٢١: ٢) وهي النعمة التي أحيا بها "الجسد المائت" (١٧: ٧)، بل لذلك "أمات الربُّ الموتَ" (٣٠: ٢).

هذه الصورة ليست صورةُ مَن يدفع الدَين، بل مَن ينتصر. ولذلك، فإن مصطلح "البدلية العقابية"، يحمل قدراً من التعسف يوحي بأن الابن فَقَدَ أُلوهيته وسقط تحت حكم الموت الذي أصدره هو مع الآب والروح، ولما فَقَدَ أُلوهيته، صار ثمناً يُدفع!!!

المراجعة الثالثة: لو كان القديس أثناسيوس قد استخدم الكلمتين: "البديل – العقاب"، لكان أمر التعامل مع ما يمكن أن يُشتق منهما، هيِّناً، ولكن يجب أن نضع أمام أعيننا الملاحظات الآتية:

١- الفرق الكبير بين "**عنا**" أو "**لأجلنا**" كما وردت عند أثناسيوس، وبين "**بديلاً لنا**" ظاهرٌ لمن يدرس تجسد الكلمة بأمانة، لا لكي يبحث عن سطر هنا أو كلمة هناك لكي يؤكد فكرته هو:

يكتب أثناسيوس إن الرب بذل جسده عن الجميع "لكي إذ كان **الجميع قد ماتوا فيه**، فإنه يُبطل عن البشر شريعة الموت" (٨: ٤)، فكيف مات الجميع فيه، وهو بديلٌ أو حتى عوضاً عنا؟ إن عبارة "**إذ مات الجميع فيه**"، **تعني أنه لا بدلية ولا عقاب**، بل –كما يشرح أثناسيوس نفسه: "باتخاذه جسداً مماثلاً لجسد جميع البشر وباتحاده بهم فإن ابن الله عديم الفساد ألبسَ الجميع عدم الفساد بوعد القيامة من الأموات" (٩: ٢). فقد كان للرب وحدةٌ أو اتحادٌ بنا، وهو الناسوت الذي مات الجميع

فيه. ويؤكد أثناسيوس شرحه بعبارة مشهورة للرسول بولس: "إن كان واحد قد مات لأجل الجميع فالجميع إذن ماتوا. وهو مات لأجل الجميع لكي لا نعيش فيما بعد لأنفسنا بل للذي مات لأجلنا وقام" (٢كو ٥: ١٤-١٥).

٢- كانت إبادة الموت تتم في جسد الرب نفسه، ذات الجسد الذي أخذه من القديسة مريم، وهو ما يؤكده أثناسيوس نفسه. وهذا ليس مجرد استنتاج ونفي لرأي آخر، بل هذه هي كلمات المعلم نفسه: "بذبيحة جسده الذاتي (الخاص به) وضع نهايةً لشريعة الموت الذي كان قائماً ضدنا ... ولهذا فبسبب تأنس كلمة الله، فقد حدثت إبادةٌ للموت وتمَّت قيامة الحياة" (١٠: ٥). ويقول أيضاً: "كان من اللائق أن يأخذ جسداً قابلاً للموت حتى يمكن أن يُبيد الموت فيه" (١٣: ٩). وفي عبارة لا تقبل التأويل، وهو بصدد صراعه مع الأريوسية، وتأكيد كيف صار الابن له المجد البكر، يكتب: "هو أخونا بسبب مشابهة الجسد ولذلك يُدعى بِكرنا – ودعي كذلك لأن كل البشر هلكوا بسبب مخالفة آدم، فإن جسده كان هو أول ما تم تخليصه وتحريره، إذ أن هذا الجسد هو جسد الكلمة نفسه. وهكذا إذ قد صرنا متحدين بجسده، قد خلصنا على مثال جسده" (ضد الأريوسيين ٢: ٦١). لقد تم تحرير الإنسان من الموت بموت الرب؛ لأن الموت -كما يذكر أثناسيوس- لم يكن خارج الجسد، بل في الجسد، ولذلك أُبيد الموت فيه (في الجسد) بقوة المخلص" (تجسد الكلمة ٢٦: ٦).

والصلب قوة، قوة حياة الكلمة، ولذلك السبب يكتب أثناسيوس: "إن كلمة الله محب البشر لَبِسَ الجسد المخلوق بإرادة الآب لكي يحيي بدم نفسه هذا الجسد الذي أماته الإنسان الأول بسبب تعديه" (ضد الأريوسيين ٢: ٦٥). لقد تم الفداء في تحرير جسد الرب نفسه بواسطة دمه، والحياة التي صارت لهذا الجسد، برهَنَت عليها القيامة، وقبل ذلك عدم فساد ناسوت الرب؛ لأن جسده لم يرَ فساداً حسب شهادة القديس بطرس في يوم العنصرة (أع ٢: ٢٧).

وإذا كنا قد متنا في آدم، وهو موت الجميع حتى الذين لم يرثوا خطية آدم (رو ٥: ١٤) بسبب وحدة الجنس البشري، فقد مُتنا فيه أيضاً، أي في الابن المتجسد بسبب هذه الوحدة عينها، وهو ما جعل وحدة الجنس البشري في آدم يقابلها وحدة الجنس البشري في المسيح: "كما في آدم يموت الجميع"، وهو اختبار كل إنسان، ولكن في التدبير، وحسب كلمات الرسول: "سيُحيا الجميع" (١كو ١٥: ٢٢) والمقارنة ظاهرة:

- الموت بإنسان

- بإنسانٍ قيامة الأموات (١كو ١٥: ٢١).

المراجعة الرابعة: إن ما يُقدِّمه أصحاب البدلية العقابية من أمثلة يزعج الضمير حقاً؛ لأنها تنزع السرائر من تدبير الخلاص، ليس المعمودية وحدها، بل الإفخارستيا أيضاً. فلا شك أن البدلية العقابية تُدمِّر "سر المعمودية"؛ لأنه كيف تكون المعمودية موتٌ مع المسيح إذ كان المسيحُ الربُّ بديلاً يُعاقَب؟ إن كلمات (رو ٦: ١-١٤) تصرخ منذ العصر الرسولي، تحتج بقوة: "كل مَن اعتمد ليسوع المسيح اعتمد لموته" (رو ٦: ٢)، إذا كان الأمر هكذا، فكيف أعتمدُ أنا بموتِ بديلٍ؟ أين الانسجام والمنطق؟ لقد غاب في سخونة الدفاع عن النفس! إن كان المسيحُ قد مات بديلاً عني، فلماذا أموت معه؟ ألم يقل بولس: "صرنا متَّحدين معه بشبه موته" (رو ٦: ٥)؟ ولا يجب أن نعثر في كلمة "شبه موته"؛ لأنها تعني أننا لم نُصلَب بمسامير على صلبان، ولم نذهب إلى الجلجثة، بل صُلبنا ودُفنا معه في مياه المعمودية: "دُفنا معه في المعمودية للموت" (رو ٦: ٤). ولا يقف الأمر عند الموت والدفن، "بل كما أُقيم المسيح من الأموات، هكذا نسلك نحن أيضاً في الحياة الجديدة جداً" (رو ٦: ٤)، فأين البديل إذن، وأين العقاب؟

كيف يمكن للرسول أن يقول بعد صلب الرب على الجلجثة "إن إنساننا العتيق قد صُلب معه" (رو ٦: ٥)؟ وكلمة "**معه**" ليست كلمة شاذة، لأن القديس بولس يستخدمها في كثير من النصوص، حيث يقول: "مع المسيح صُلبت" (غلا ٢: ٢٠). وأيضاً يقول: "إذا كنتم قد متم مع المسيح" (كو ٢: ٢٠). وكلمة "معه" تجعل المسيح

فينا: "المسيح فيكم رجاء المجد" (كو ٢: ٢١).

كيف يجوز لمسيحي أن ينطق باسمٍ غريبٍ عن الكتاب المقدس وعن الآباء وعن صلوات الليتورجيا: "البدلية العقابية"؟ وكيف نصالح هذا مع ما يقوله الرسول لنا: "وإذ كنتم أمواتاً في الخطايا وغلف أجسادكم معه أحياكم معه" (كو ٢: ١٣)؟ فقد جاز فينا حكم الموت، ليس لأنه بديلٌ، بل لأن الرب قَبِلَ لأجلنا الموتَ لكي يتحول هذا الموت إلى فداء، لا إلى دفع ثمن، بل كما يكتب أثناسيوس المتَّهم بأنه إنجيلي: "كان من الضروري أن يتخذ كلمة الله جسداً ويستخدم أداة بشريته **لكي يحيي الجسد**" (تجسد الكلمة ٤٥: ١).

كما يقول: "لهذا السبب كان من الصواب أن يلبس المخلص جسداً لكي إذا اتحد الجسد بالحياة **لا يعود يبقى في الموت كمائت** (وهو ما تقتضيه فكرة البديل العقابي)، **بل إذ قد لبس عدم الموت فإنه يقوم ثانيةً، ويظل غير مائتٍ فيما بعد** (وهو ما يتعارض تماماً مع فكرة البديل العقابي) .. **لذلك لَبِسَ الكلمةُ جسداً لكي يلاقي الموت في الجسد ويبيده** .." (تجسد الكلمة ٤٤: ٦).

كما يقول: "كان الموت في الجسد وليس خارج الجسد ... وصار داخل نسيج الجسد" (٤٤: ٥)، ولذلك لبس الجسد الحياة كثوب، وهكذا "أبيد منه الفساد الذي كان فيه" (٤٤: ٨).

كيف أبطل الربُّ الموتَ؟

بالاتحاد بالجسد، "ولأنه هو الحياة؛ صار جسده هيكل الحياة" (٣١: ٤ – ٤٤: ٥ – ٤٥: ١ – ٤٧: ٢ – ٥٤: ٢). وفي عبارة موجَزة: ما الذي كان الرب سيصنعه بهذا الجسد؟: "جسدٌ قابلٌ للموت وأن يقدَّم للموت عن الجميع ولأجل هذه الغاية أعده المخلص لنفسه. لكن كان من المستحيل أن يبقى هذا الجسد ميتاً بعد أن جُعِلَ هيكلاً للحياة، ولهذا إذ مات كجسدٍ مائتٍ، فإنه عاد إلى الحياة بسبب الحياة التي

فيه" (٣١: ٤). حقاً "المسيح قد أمات الموت" (٣٠: ٢).

معنى كلمة الدين في ضوء علاقة الابن بالبشرية

استخدم القديس أثناسيوس تعبير "الدين" مرتين فقط في كتاب تجسد الكلمة (٩: ٢ – ٢٠: ٥). ومن خلال هذين النصَّين وغيرهما، ندرك أن علاقة الابن الكلمة بالخليقة ومسئوليته هذه الخليقة هي التي تحدد ما الذي يعنيه أثناسيوس بهذه الكلمة.

يهمنا **أولاً** أن نؤكد على أنه لم يكن في التسليم الكنسي حسب وثائق التاريخ الخاصة بما قبل أثناسيوس – وأثناسيوس – وما بعد أثناسيوس، وجود لفكرة أو إيحاء دفع ثمن لله الآب. **والسبب التاريخي واللاهوتي لذلك، هو الإيمان بمساواة الابن للآب، وأن الابن هو خالقٌ مع الآب، فهو اللوغوس، وحكمة الآب. وخالقُ الإنسان لا يقف أمام الآب كمَن هو أقلُ من الآب، أو كغريبٍ عن الحياة الإلهية، يقدِّم ترضيةً أو يدفع ثمناً للآب.** فهذه صورةٌ وفدت إلينا –كما قلنا– من عصر الإقطاع، ووجدت رواجاً لها في العصر الوسيط، ولكنها تحولت إلى سلاحٍ لهدم لاهوت العصر الوسيط، فقد ناظر قادة الإصلاح في القرن الـ ١٦ كنيسة روما بأن "دفع الثمن" يهدم فكرة وتعليم "المطهر"، بل يلاشي ذبيحة القداس، وهكذا أصبحت وساطة المسيح رب المجد هي السكين الحاد الذي شقَّ السلطان الكهنوتي.

ورغم أنه سبق لي أن حذَّرت أُسقف التعليم، وبابا الإسكندرية فيما بعد، من الانسياق وراء تعليم عصر الإقطاع، والعصر الوسيط بدفع الثمن وترضية الآب؛ لأن هذا سوف يتطور إلى هدم أرثوذكسية التعليم في الكنيسة القبطية، إلا أن غواية الزعامة وعدم شجاعة التراجع عن الخطأ، جعل التمسُّك بالخطأ، أبشع من الخطأ نفسه؛ لأن الإنسان إذا عرف خطأً ما ولم يتراجع عنه، صار تمسُّكه بالخطأ عن معرفة وإصرار، لا عن جهل.

ونؤكد **ثانياً** على أن مَن ينادي بأن الابن دفع "دين" الإنسانية لله الآب، لم يدرس ما ذكره أثناسيوس نفسه عن علاقة الإنسانية بالابن، فهو –أثناسيوس– قبل أن

يذكر "الدين"، يؤكد أن اللوغوس الخالق كان هو الذي أشرك الإنسان في قوته (٣: ٣). حيث يقول أثناسيوس:

– "الله صالح .. ولذلك خلق كل الأشياء من العدم بكلمته يسوع المسيح ربنا .. خلقهم على صورته وأعطاهم شركةً في قوة كلمته" (٣: ٣).

وحرفياً: صار الإنسان يتبع اللوغوس مثل تبعية الظل للنور.

– "الله الكلمة سَكَنَ فيهم" (٥: ٢)، وسُكنى الله الكلمة في الإنسان تعني أنه خُلِقَ على صورة أزلية الله (٥: ٢).

ثالثاً: جاء سقوط آدم بكارثة حدَّدها أثناسيوس نفسه، بأن الجنس البشري "نُزعت منهم نعمة مماثلة صورة الله (اللوغوس)" (٧: ٤). ومِن هنا جاء ضياع النعمة التي بدَّدها الإنسان، وأصبح تجسد الكلمة هو كما يقول أثناسيوس: "مَن ذا الذي يستطيع أن يرد للإنسان تلك النعمة، ويرده إلى حالته الأولى (الصورة) إلا كلمة الله الذي خَلَقَ في البدء كل شيء من العدم" (٧: ٤).

رابعاً: يجب أن ننقش هذه الكلمات على حجرٍ، ولا نكتفي بأن تُكتب على ورق: "رَحِمَ جنسنا وأشفق على ضعفنا وتراءف على فسادنا، وإذ لم يحتمل أن يرى الموت وقد صارت له السيادة علينا .. فقد أخذ لنفسه جسداً لا يختلف عن جسدنا (٨: ٢).

أقول ننقش هذا الكلام على الحجر؛ لأننا لم نسمع هذا التعليم بعد القديس اثناسيوس والقديس كيرلس، بل ذابت المحبة الإلهية في بحر لاهوت العصر الوسيط، ثم موجة غواية ما نشرته جمعيات المبشرين الإنجيليين والكاثوليك، وهو ما سبق وأشرنا إليه في دراستنا بعنوان: "القديس أثناسيوس في مواجهة التراث الديني غير الأرثوذكسي".

ويعود القديس أثناسيوس إلى نفس الأيقونة الإلهية، إذ يذكر: "اتخذ جسداً مماثلاً بطبيعة أجسادنا .. بذل جسده للموت عن الجميع وقدَّمه للآب. كل هذا فعله من أجل محبته للبشر" (٨: ٤). هذه المحبة التي جعلت الرب: "**يُبطل شريعة الموت والفناء؛ لأن سلطان الموت قد استُنفِذ في جسد الرب**" (٨: ٤)، ولم يقف عند ذلك، بل لأن "**الجميع قد ماتوا فيه**" (٨: ٤)، فقد صار فداءَ الكل عاماً وللكل، ثم إعادة البشر للحياة بنعمة القيامة (٨: ٤).

خامساً: وبين ما هو مستحيل على الله الكلمة، وما هو ممكن، يتوضح لنا جانبٌ مما يقصده القديس أثناسيوس بكلمة "الدين":

١- "من غير الممكن أن يموت الكلمة لأنه غير مائت" (٩: ١). ومع استحالة موت الله الكلمة، يبقى الجواب واضحاً، لقد أخذ "جسداً قابلاً للموت"، وهو يذكر هذا في نفس الفصل (٩) الذي وردت فيه كلمة: "الدين"، و"جسداً قابلاً للموت".

أما إذا اتحد الكلمة بالجسد، فهو كما يذكر أثناسيوس يصبح "تقدمة مقدسة وذبيحة خالية من كل عيب" (٩: ١).

٢- وعندما يبذل اللوغوس، فهو لا يقدِّم فقط؛ لأن فعل البذل هو فعل تضحية، ولذلك فهو "يرفع الموت فوراً عن جميع نظرائه من البشر" (٩: ١)، لأننا كما سبق ولاحظنا "استنفَذَ (٨: ٤) الموتُ سلطانه في جسد الرب ولم يعد له سلطان بعد"، بل لاحقاً يذكِّرنا أثناسيوس بأن "الموت نفسه مات" "المسيح أمات الموت" (٣٠: ٢).

الفدية αντιψυχον والدين:

إذن، ماذا يقصد القديس أثناسيوس نفسه بكلمة فدية؟

من الصعب إقناع الذين لم يدرسوا تاريخ العقيدة المسيحية بأن الكلمات، أي

كلمات، تتغير معانيها واستعمالاتها من شعب إلى شعب، بل ومن عصر إلى عصر. ولأن هذه سكة سفر طويلة، فسوف نكتفي بأن نضع أمام القارئ الفطن صياغة أثناسيوس نفسه:

"**ولأن كلمة الله هو فوق الجميع فقد كان لائقاً أن يقدم هيكله الخاص وأداته البشرية فديةً عن حياة الجميع موفياً الدين بموته**" (٩: ٢).

وهنا يجب أن ننتبه إلى ما يأتي:

١- لا يجب أن نهمل -في قراءة سريعة- أُلوهية الكلمة الذي "هو فوق الجميع" كإله خالق مع الآب. فهذا لا يمكن أن يصبح ثمناً لخطايا البشر الذين خلقهم.

٢- إن الأداة البشرية التي قدَّمها عن حياة الجميع هي هيكل جسده الذي قُدِّم للموت، ولكن هذا الهيكل هو "هيكل الحياة"؛ لأنه هو الذي يعطي الحياة لجسده (١٧: ٢). وهو الذي "صوَّر هذا الجسد" (١٨: ٥). ولذلك، وهو على الصليب، لم يكن ثمناً، بل كانت "الخليقة كلها خاضعة كعبدٍ له وأنها شهدت برعبها لحضور سيدها" (١٩: ٣).

٣- إن الرب هو "الحياة ذاتها"، ولذلك -بدقة: "لم يكن ممكناً أن يجعل الإنسان المائت غير مائت، إلا ربنا يسوع المسيح الذي هو الحياة ذاتها (٢٠: ١). وهو هنا يؤكد مقابلة الحياة للموت، وهو موضوعٌ لم نسمعه في زماننا عن "موت الرب المحيي" السائد في كل أدبيات أُم الشهداء؛ لأن رد الحياة هو للمائت، أي الإنسان. إذن، فالأمر ليس قضائياً، بل هو هبة الصلاح والمحبة الإلهية.

٤- كان الجميع مستحقين الموت (٢٠: ٢)، وكانت الهبة التي أُعطيت في البدء كنعمة، وهي الصورة الإلهية، قد نُزِعَت من الإنسان، وهو ما يشرحه القديس أثناسيوس في الفصل السابع مؤكِّداً عدم جدوى التوبة؛ لأن "نعمة مماثلة صورة الله نُزِعَت" (٧: ٢).

"الدينُ" إذن، هو فقدان الصورة، وهو لا يقابَل بمَن يدفع الثمن، بل "مَن ذا

الذي يستطيع أن يعيد للإنسان تلك النعمة ويرده إلى حالته الأولى إلا كلمة الله الذي خَلَق في البدء كل شيء من العدم" (٧: ٤)، بل وأيضاً: "هو وحده القادر أن يأتي بالفاسد إلى عدم فساد" (٧: ٥)؛ لأنه الكلمة الخالق، وهو فوق الكل كخالق، كما سبق وأشرنا، وهو ما يؤكده أثناسيوس نفسه: "هو كلمة الآب ويفوق الكل، كان هو وحده القادر أن يعيد خلق كل شيء" (٧: ٥).

٥- لو كان الموضوع الأصلي هو دفع الثمن، فكيف كتب القديس أثناسيوس: "إن موت الجميع قد تم فيه، أي في جسد الرب" (٨: ٤ — ٢٠: ٥).

"الدين"، هل هو إبادة الموت أم دفع الثمن؟

لا شك أن كلمة "الدين" إذا ظهرت في نفس الفقرة مع كلمة "فدية"، فإنها تغري الذين يفتِّشون عن ما يعتنقونه من آراء ونظريات، في التراث الكنسي القديم. ولكن هؤلاء يُواجَهون بإشكالية واضحة، وهي أن كتاب تجسد الكلمة لم يقدِّم نظريةً عن الفداء، أو الكفارة، بل كان يشرح سبب التجسد على أنه صلاح ومحبة الله.

والدليل الأول على ذلك هو كلام أثناسيوس عن إبادة الموت لا دفع الثمن. وهو ما يكرره القديس أثناسيوس مؤكِّداً أن الكلمة "انتظر إلى أن يأتيه الموت ليُبيده" (٢٢: ٢). ولو كان هناك ثمنٌ، فكيف استطاع أثناسيوس أن يكتب: "المخلص لم يأتِ لكي يتمم موته هو، بل موت البشر .. قَبِلَ في الجسد ذلك الموت الذي أتاه من البشر لكي يبيد ذلك الموت تماماً عندما يلتقي به في جسده" (٢٢: ٢-٣).

لقد كان للموت سيادةٌ شرعيةٌ لأنه جاء بحكم (فصل ٦ كله)، ولكن لو كان موت البشر هو ذاته موت المخلِّص، فكيف أمات الرب الموت، وكيف أباد الموت؟

والدليل الثاني هو تأكيد القديس أثناسيوس على أن جسد الرب نال قوة حياة من الكلمة، أي من الأقنوم، ولذلك لم يرَ جسده فساداً (٢١: ٥)؛ لأنه جسد الحياة

ذاتها (٢١: ٧). كانت أبادة الموت تعني عدم فساد الجسد، إذ لم يستطع الموت أن يسيطر على الرب، فقد انتظر الربُّ الموت (٢٢: ٢). وعندما جاء الموت، أباده تماماً، وهو ما لا يتفق بل يناقض تماماً فكرة دفع الثمن التي وردت في مصادر العصر الوسيط الأوروبي.

الدليل الثالث لقد مات الموت حقاً (٢٧: ١). وموت الموت يعني نهاية سلطان الموت، أو كما نقول في صلاة القسمة: "أبطل عز الموت". وقد "مات الموت لأن الرب أنتظر الموت ليبيده" (٢٢: ٢)، والتقى بموت البشر في جسده، ولذلك أباد الموت من جسده، وأظهر علامة الظفر على الموت أولاً بعدم تألم جسده، ثانياً بعدم الفساد" (٢٦: ١). لقد هزم المخلصُ الموتَ وشهَّر به على الصليب (٢٧: ٤).

وقد حدث هذا التحول، أي إبادة الفساد –وبدقة القديس أثناسيوس– أُبيد الفساد؛ "بنعمة القيامة" (٢١: ١)؛ لأن الرب لم يكن على الصليب ضعيفاً، بل "هو قوة الله وكلمة الله (اللوغوس) وهو الحياة عينها" (٢١: ٣). **فالتحول هنا، ليس حكماً قضائياً، حسب تعليم العصر الوسيط؛ لأن الحكم إذا صدر لمحو عقوبة –كما هو جاري في المحاكم– أو لتوقيع عقوبة، فإن الحكم بالموت لا يعني قيامة المحكوم عليه.**

خاتمة

لا بد للقارئ الفطن أن يكون قد لاحظ أن هناك كثير من الحقائق غاب عن نظريات الفداء في فكر العصر الوسيط. وهي حقائق لا يستقيم بدونها تعليم يُطرح على أنه تعليم أرثوذكسي يقوم على الإيمان الرسولي، هذه الحقائق هي:

١– إن الابن من ذات جوهر الآب، وهو خالقٌ مع الآب والروح القدس. ولذلك، لا يمكن أن يكون ثمناً، أو مذنباً، ولا يُحاكم كخاطئ.

٢– الابن هو الحياة، وهو كذلك على الصليب وفي القبر، وقد قَبِل الموتَ لأجلنا

لكي يبيد الموت، لا لكي يقع هو تحت سلطان الموت.

٣- مات الرب لأجلنا بسبب عجز البشر عن فداء أنفسهم، ولذلك جاء المخلص لكي يرد للإنسان ما ضاع منه وما فقده.

في ضوم تقدم، يمكننا أن نحدد معنى "الدين"، و"الفدية" من واقع ما كتبه أثناسيوس نفسه بأنه:

١- رد الصورة الإلهية، وهو ما أشرنا إليه من قبل، فقد بدَّد الإنسانُ النعمةَ، وأصبح مديناً لله بما فقده.

٢- كان الإنسان تحت حكم الموت: "موتاً تموت"، وجاءت الفدية، أي قوة الرب لتحرير، ليس آدم وحده، بل الجنس البشري كله. وقد صار هذا حقيقةً واقعة، **أولاً** بسبب تجديد الطبيعة الإنسانية التي تم تجديدها في ناسوت الرب نفسه الذي صار بلا ألم وبلا فساد، وحيَّاً بقوة الاتحاد بالكلمة. **وثانياً** بنقل ما حدث في ناسوت الرب لنا، بشكلٍ خاص في السرائر: المعمودية – المسحة – الإفخارستيا.

كلمة عتاب لنيافة الأنبا روفائيل:

لماذا دخلت نيافتكم هذا الصراع الذي لا يؤدي إلى شيء مفيد ونافع؟ لو كان أثناسيوس نفسه استخدم كلمة "بديل"، أو كلمة "عقابي"؛ لقلنا لك: معك كل الحق في الاستشهاد به كشاهد، ولكن "البديل العقابي" تعبير أو عبارة لم تُسمع في أدبيات الكنيسة القبطية الأرثوذكسية قبل الأنبا بيشوي مطران دمياط. ولذلك يا سيدنا الكريم كنا نرجو أن تنأى بنفسك عن هذا الخضم الآسن، وألا تساير مطران دمياط في ترجمته بين قوسين تعبير "الخطية الأولى" في كتاب تجسد الكلمة إلى "الخطية الأصلية"، وذلك لأن تعبير الخطية الأصلية غير معروف عند الآباء الذين كتبوا باليونانية.

د. جورج حبيب بباوي